اسم الدرس : تفسير سورة الرعد (٦) | الآيات [٣٢ : ٤٣]

تصنيف الدرس : مجلس تفسير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

بسم الله والصلاة والسلام على رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، نستكمل بإذن الله -سبحانه وتعالى- آخر مجلس من مجالس سورة الرعد، أسأل الله -سبحانه وتعالى- أن يتقبل منا وأن يجعل هذه المجالس خالصةً لوجهه -سبحانه وتعالى-، وأسأله -سبحانه وتعالى- أن يفتح لنا فتحًا مبينًا في فهم كتابه، والعمل به، والمجاهدة به، وأن يجعلني وإياكم من أهل القرآن، الذين هم أهله وخاصته.

بإذن الله -سبحانه وتعالى- وبتوفيقه، وعونه، وفضله وكرمه، إن شاء الله، سيكون هذا بإذن الله آخر مجلس من مجالس سورة الرعد.

كنا توقفنا عند قول الله -سبحانه وتعالى-: { وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ } (الرعد: ٣٢)

أحب أن أراجع في مقدمة كل درس على المعاني السابقة، ليستحضر الإنسان ترابط السياق، وذكرنا أن من الضروري أن يستحضر الإنسان ترابط السياق القرآني، بحيث يعرف موقع الآية القرآنية من هذا السياق.

وإن شاء الله ستقابلنا اليوم آيةٌ فيها خلاف كبير بين أهل العلم، وسنرى كيف أن منهم من رجح معنى معين بالسياق.

- **الربط بين الآيات:**

كنا توقفنا بعد ما أخبر ربنا -سبحانه وتعالى- في المثل المائي والناري في الصراع بين الحق والباطل، ثم أخبر أن أهل الحق طبقوا هذا الحق في الأرض، وأصلحوا ما أفسده أهل الباطل وصبروا ابتغاء وجه ربهم، وأن هناك أناسًا من أهل الباطل أفسدوا في الأرض، وكان عاقبة أهل الباطل أن لهم اللعنة، ولهم سوء الدار، ثم بيّن الله -سبحانه وتعالى- ويكاد هذا أن يكون محور من محاور سورة الرعد: إصرار أهل الباطل على طلب آية حسية من النبي -صلى الله عليه وسلم- وتكرار هذا الطلب بصورة معينة.

تحليل هذا الإصرار: قال بعض المفسرين إما بسبب الوثنية التي كانت فيهم، ولم يتخلصوا منها، فكان تصورهم دائمًا عن الآيات أنها كلها حسية!

بعض المفسرين ربط بين قول الله -سبحانه وتعالى-: {اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمن يشَاءُ وَيقْدِرُ} (الرعد: ٢٦) ثم قول الله -سبحانه وتعالى-: {وَفرِحُوا بالحْيَاة الدُّنْيا} (الرعد: ٢٦).

وتكلمنا عن أن بعض المفسرين أشار إلى أن الفرح بالحياة الدنيا والاهتمام بالماديات كان هو السبب وراء طلب الآيات؛ بل كما قلتُ لكم أيضًا أن بعض من حلَّل طلبات المشركين من النبي -صلى الله عليه وسلم- في قول الله -سبحانه وتعالى-: {وَلوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ به الجْبَالُ} (الرعد: ٣١) أن الطلبات كانت دنيوية؛ توسيع الأرض، وإخراج الزرع، تقريب المسافات في السفر -وهذا أحد معاني قُطِّعَت به الأرض-، وتوسيع المكان للتجارة والزراعة، وأن يبعد عنهم الجبال فكانت الطلبات كلها طلبات مادية، فالإصرار على طلب آية مادية ليس السبب من ورائه طلب الهُدى، ولكن إما حب الحياة الدنيا، تفكير مادي، أو استهزاء واستنكار لبعثة النبي -صلى الله عليه وسلم-، فيكون نوع من الإعنات للنبي صلى الله عليه وسلم.

فهذا المعنى معنى محوري في سورة الرعد: إصرار أهل الباطل على طلب آية حسية، فلما أصروا على هذا الطلب وكرروه { وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ} (الرعد: ٢٧).

لما كرروا هذا الطلب؛ أخبر الله -سبحانه وتعالى- أن هناك فريقًا من المؤمنين كانوا يطمئنون بالقرآن، ويفرحون بالقرآن -وسيأتي لفظ الفرح لاحقًا- كانوا يفرحون بالوحي، ويطمئنون بالوحي { أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} (الرعد: ٢٨) وذكرنا الاختلاف في معنى 'ذكر الله'، وكنت أميل أن المعنى مع السياق: هو القرآن، أن هناك أناس اطمأنت إلى القرآن ثم عاتب القرآن عليهم، كيف لا يطمئنون بهذا الوحي؟! كيف لا يطمئنون بهذا القرآن؟! كيف لا يفرحون بهذا القرآن؟! والله -سبحانه وتعالى- يقول: {وَلوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ به الجْبَالُ أو قطعَتْ به الْأَرضُ أوْ كُلمَ به الموْتىٰ بل لّله الْأَمْرُ جَميعًا أفَلَمْ يَيْأَس الذينَ آمَنوا أن لوْ يشَاءُ الله لَهَدَى الناسَ جَميعًا} (الرعد: ٣١)

وتكلمنا في تفسير هذه الآية على احتمالين، إما شدة الإعنات والجحود، أنه حتى لو جاءتهم آيات حسية سيكفرون، أو أن هذا القرآن مليء بالمعجزات والآيات، ولكنهم يُعرضون عن هذا الوحي!

ثم بيّن الله –سبحانه وتعالى– أن الله قادر على إنزال آية حسية تكون نوعًا من أنواع العذاب {وَلَا يَزَالُ الذينَ كَفَروا تصيبُهُم بما صَنَعوا قارِعَةٌ أوْ تَحلُّ قريبا مّن دَارهِمْ} (الرعد: ٣١) هذه القارعة التي تقرع بلادهم وأرزاقهم وأفئدتهم؛ تكون بمثابة الآية الحسية التي تجعل الإنسان يعيد التفكر مرة أخرى، مثلما يكفر الإنسان بالله لكن حينما يكون في منتصف البحر أو يكون كما يقولون في المثل المشهور –وإن كان ليس مطردًا– "لا يوجد ملاحدة في الخنادق" أي أثناء إحساس الموت يلجأ الإنسان إلى الله –سبحانه وتعالى–. فهذه القوارع كمرض شديد مثلًا يجعل الإنسان يتفكر، فقد يكون الإنسان في قمة الفساد والإيغال في الشهوات، فيصيبه مرضٌ خطيرٌ ويشارف على الموت، فيلجأ إلى الله –سبحانه وتعالى– {حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الغرَقُ قالَ آمَنتُ أنهُ لَا إلٰهَ إلَّا الذي آمَنتْ به بَنو إسْرائيلَ وَأنا منَ المسْلمينَ} {آلْآنَ وَقدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وكُنتَ منَ المفْسدينَ} (يونس: ٩١–٩٠).

فكثير من الناس حينما يشارف على الموت، أو يقع في أزمة كبيرة يعلم أنه لن ينجيه من هذه الأزمة أي أسباب أو أي أناس من القوة أو عتاد فيلجأ إلى الله –سبحانه وتعالى–.

فأخبر الله –سبحانه وتعالى– أنه يعيدهم إليه بهذه القوارع، لكن بالرغم من هذه القوارع التي تصيبه، وبالرغم من وضوح الآيات؛ استمروا في الاستهزاء، {وَلقَد اسْتُهْزئَ برسُلٍ مّن قبلك} (الرعد: ٣٢) فأعرض عنهم يا محمد –صلى الله عليه وسلم– فهذا ديدن أهل الباطل!

هذا ديدنهم، استهزأوا بمن قبلك، ويستهزئون بك.

{وَلقَد اسْتُهْزئَ برسُلٍ مّن قَبْلكَ فأمْلَيْتُ للذينَ كَفَروا} (الرعد: ٣٢)

هنا تعالج الآيات شعورًا لدى المؤمن الذي يكون فيه نوع عَجلة، ويطلب من الله –سبحانه وتعالى– أن يَعجل بعذاب أهل الكفر ويتمنى المؤمن أن ينزل العذاب على أي إنسان يتكلم بكلمة كفر أو كلمة استهزاء، فيقول الله –سبحانه وتعالى–: {فأمْلَيْتُ} الإملاء أو الإمهال هو التأخير لمدة يتعاقب فيها آيتي الليل والنهار لفترة طويلة.

{فأمْلَيْتُ} فيها نوع من التأخير، فقد تذهب إلى مكان لتشتغل بالدعوة إلى الله –سبحانه وتعالى– فيستهزئ بك أحدهم؛ تدعوه للصلاة، فيستهزئ بك، ويسخر منك، فتتصور أنه مجرد ما فعل هذا أنه سيُمسَخ قردًا مثلًا!

فتقول له: "يا بني إني أخاف عليك، أنا أصلي في المسجد، لا تدري ماذا سيحدث لك إن استهزأت بي!"

وقد لا يحدث له أي شيء!

فتفكيرك أنه لابد وأن ينزل بالمستهزئ عذاب عاجل، هذا عدم فهم لسنن الله -سبحانه وتعالى-؛ فالأصل في الدنيا أنها دار ابتلاء، وفي الآخرة أنها دار جزاء.

وقد يُعَجّل الله -سبحانه وتعالى- بعض العقوبات، لبعض الناس -كما ذكرنا في العطاءات الدنيوية- أيضًا ما نشاء لمن نريد فكذلك أيضًا تعجيل عذاب ما نشاء لمن نريد.

كل شيءٍ مُقيَدٌ بمشيئة الله سبحانه وبإرادته، وكل هذا وراءه حكمة عظيمة، لا يعلمها كثيرٌ من الناس { فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ} (الرعد: ٣٢).

يقول الله -سبحانه وتعالى- للمشركين من قريش: انظروا إلى العقاب الذي نزل على الأمم السابقة، سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلكم؛ حتى يتدبر هؤلاء أن الله -سبحانه وتعالى- قادرٌ على أن يُعجّل عليهم العذاب.

ثم يقول الله -سبحانه وتعالى- كيف تشركون بالله وكيف تبحثون عن إله غيره؟! {أفَمَنْ هُوَ قائمٌ عَلىٰ كُلّ نَفْسٍ بما كَسَبتْ وَجَعَلوا لِّله شُرَكَاءَ قلْ سَموهُمْ أمْ تُنَبئونَهُ بما لَا يَعْلمُ في الْأرض أم بظاهرٍ مّنَ القَوْل بلْ زينَ للذينَ كَفَروا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَن السَّبيل وَمَن يضْلل الله فمَا لهُ منْ هَادٍ} (الرعد: ٣٣)

{أفَمَنْ هُوَ قائمٌ عَلىٰ كُلّ نَفْسٍ بما كَسَبتْ} (الرعد: ٣٣): الجواب هنا محذوف، تقدير الجواب: أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كهذه الآلهة التي لا تفعل شيئا؟! أتشركون بالله ما لا ينفعكم ولا يضركم شيئا؟! والله -سبحانه وتعالى- قائمٌ على كل نفسٍ؛ يحفظها ويرعاها ويرزقها ويُغذيها، ثم يجازيها على أعمالها؟

- **قاعدة لغوية:**

مجلس اليوم ستكون فيه بعض الصعوبة حيث سأذكر بعض الخلافات -فقد تركت تلك النقاشات للمجلس الأخير بحيث تستمتعون بأول خمس دروسٍ، ثم نؤصل القواعد في آخر مجلس، سنذكر هنا قواعد تساعدنا في التفسير:

عندما يأتي حرف استفهام كالألف؛ وبعده حرف عطف كالفاء هنا، مثلًا (أولم) الواو واو عطف وأضيفت على (أ لم).

هنا (أ / ف / من)، {أفَمَنْ هُوَ قائمٌ عَلَىٰ كُلّ نَفْسٍ} (الرعد: ٣٣):

اختلف المفسرون؛ هل كان أصل الكلام فاء عاطفة على الجمل السابقة أي هل كان الأصل أن الفاء أولًا، ثم حرف الاستفهام؟

وهذا كان اختيار كثير من المفسرين بأنه حصل تبديل، أي أن أي آية تقابلك في القرآن 'أفلم، أولم، أفمن، أومن' أي ألف استفهام وبعدها حرف عطف سواءً كان واو أو فاء، قالوا: الأصل أن يكون حرف العطف أولًا، لكن وُضعَ حرف الاستفهام أولًا، حيث تجد في اللغة العربية حروفًا لها الصدارة، لا يسبقها شيء، وهذا من عادة العرب.

فعند إعرابها يقولون: أصل الكلام (ف) بعد أن عرفتَ ذلك الكلام السابق [أمن هُوَ قائمٌ عَلىٰ كُلّ نَفْسٍ بما كَسَبتْ] هذا قول.

لم يرتض الزمخشري هذا القول؛ حيث قال ما جاء أولًا فهو أولًا سواء كان حرف عطف أو استفهام -أي لا يوجد تبديل-، إذًا فماذا سنفعل هنا؟!

(أ/ فلم) في الآية الاستفهام أولًا ثم بعده حرف العطف.. ثم قال:

ما بين الاستفهام وحرف العطف جملة محذوفة: (أ / ولم) ما بين الألف والواو جملة محذوفة، تقدرها أنت وفق السياق؛ فكأن المعنى هنا: أيشركون بالله شيئًا ويجعلون له أندادًا وهو -سبحانه وتعالى- قائم على كل نفس؟

فيضعُ جملةً، ويعطف على محذوف.

إذًا هناك اختياران هنا دائمًا –وهذا مطرد في كل الاستفهامات–، يختلف المعربون والمفسرون؛ فقسم يرى أن أصل الكلام حرف العطف أولًا لكن قُدم الاستفهام لأن له الصدارة، وقسمٌ يرى أنه معطوف على محذوف وهذا ملخص الكلام.

- القيوم ـ سبحانه وتعالى ـ .

{أفَمَنْ هُوَ قائمٌ} (الرعد: ٣٣) –سبحانه وتعالى–؛ القيام هنا على النفس معناه: الحي القيوم –سبحانه وتعالى–، أي الحفظ والرعاية والتدبير والتي هي من وصف الربوبية لله –سبحانه وتعالى –.

{أفَمَنْ هُوَ قائمٌ عَلىٰ كُلّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ} (الرعد: ٣٣) قال جماعة من المفسرين: نفهم معنى أنه قائم على كل نفس، فالله –سبحانه وتعالى– يقوم على كل شيء، هو قائم على كل نفس؛ أي من قبل أن توجد، {هَلْ أتىٰ عَلى الْإنسَان حينٌ مّنَ الدَّهْر لَمْ يكُن شَيْئا مَّذكُورا} (الانسان: ١).

من قبل أن توجد وكنت مجرد حيوان منويّ في ملايين الحيوانات ثم يحفظ في كل هذه الرحلة الطويلة، تلقيح البويضة، نطفة، علقة، مُضغة، ويستقر في الرحم في ظلمات، ويكسوه العظام واللحم، ويكبر في ظلمات لا يعلمها إلا الله –سبحانه وتعالى–، ويرعاه الله –سبحانه وتعالى– وهو طفل، ويمر بظروف شتى، وابتلاءات يكاد كل ظرف أن يكون كفيلًا بإهلاكه؛ ولكن الله –سبحانه وتعالى– يحفظه ويرعاه، الله –سبحانه وتعالى– قائم على كل نفس.

تستحضر تاريخ حياتك وكيف مررت بابتلاءات كثيرة، وفي كل مرةٍ كنت تمرُّ بالطريق.. تكاد تَهْلك، كنت سائقًا وغفلت.. تكاد تهلك!

جاءك مرض.. تكاد تهلك!

في كل المرات وفي كل الابتلاءات التي مرت عليك مذ كنت صغيرًا إلى أن كبرت... الله –سبحانه وتعالى– قائمٌ يرعاك، حيٌّ قيوم –سبحانه وتعالى–.

والآية هنا فيها زيادة: {أفَمَنْ هُوَ قائمٌ عَلىٰ كُلّ نَفْسٍ بما كَسَبَتْ} (الرعد: ٣٣)، ماذا تعني {بما كسبت}؟

قال بعض أهل العلم: {قائمٌ عَلىٰ كُلّ نَفْسٍ بما كَسَبتْ} (الرعد: ٣٣) أي يقوم على كل أحوالها ويُقَدِّرها على الكسب، وهذه كلمة قالها الإمام القرطبي.

أو قائمٌ على كل أحوال النفس، فالله -سبحانه وتعالى- يعلم بكل أحوالك، في النوم واليقظة والسفر والمجيء وأخص هذه الأحوال: ما تكسبُ من أعمال الخير والشر؛ لماذا؟!

لأنه سوف يجازيك عليه، فيكون هناك اهتمام بما تفعل من خيرٍ وشر!

إذًا كل هذه الرعاية؛ الرزق والحفظ والرعاية والتدبير لينظر -سبحانه وتعالى- كيف تعملون!

ربنا -سبحانه وتعالى- لم يخلقك عبثًا، لم يعطك -سبحانه وتعالى- كل هذه النعم لترتع بها في الدنيا دون أن تحاسب.

{بما كَسَبتْ} كل ما كسبت مكتوبٌ وسوف تسأل عنه!

{أفمَنْ هُوَ قَائمٌ عَلىٰ كُلّ نَفْسٍ بمَا كَسَبتْ}(الرعد: ٣٣) ثم بالرغم من ذلك -والخبر هنا محذوف كما ذكرنا- {وَجَعَلوا لَّله شُرَكَاءَ}(الرعد: ٣٣)، جاءت الجملة هنا بصيغة نوع من أنواع التعجب، أي بالرغم من ذلك جعلوا لله شركاء!

فيقول الله لهم: {قلْ سَمُوهُمْ}(الرعد: ٣٣) ، من هؤلاء الشركاء؟

{أمْ تُنَبئونهُ بما لَا يَعْلمُ في الْأرض أم بظاهرٍ مّنَ القَوْل}(الرعد: ٣٣) هم يدعون أن هناك شركاء غير الله -سبحانه وتعالى-، يدّعون أن هناك شريك مع الله -سبحانه وتعالى- أو أن هناك آلهةٌ غير الله -سبحانه وتعالى-، إذًا ما هي أسماء هؤلاء الشركاء؟

{قلْ سَمُوهُمْ}(الرعد: ٣٣) ماذا تعني؟!

إما أن يكون الغرض التهديد، مثل: {قلْ آمنوا به أوْ لَا تُؤْمنوا} (الاسراء: ١٠٧) و {فمَن شَاءَ فَلْيُؤْمن وَمَن شَاءَ فَلْيكْفُرْ}(الكهف: ٢٩).

ليس المراد هنا التخيير، وإنما أنت تنفض يدك ممن أمامك، وتريد أن تهدده، كما تقول لابنك: "افعل ما تريد"، هنا أنت تهدده ولست تعطيه اختيارًا!

فبعد ما بيَّنْتَ له وحذرته، وأعلمته بالعواقب فتقول له افعل ما تريد، ولا يصح هنا أن يقول لك: "والدي أنت من قلت لي أن أفعل ما أريد"! الأمر يختلف، فلقد قلتها لك تهديدًا، وليس اختيارًا؛ فالكلمة لها سياقاتها؛ فقال بعضهم: الغرض منها التهديد، وقال آخرون: الغرض منها أنهم نكرات؛ قل لي من الآلهة التي تعبدها؟ من الآلهة!

قد يجيبك قائلاً: اللات والعزى.. يقول أسماء، وهذه مجرد أسماء!

وهذا معنى {قلْ سَمُوهُمْ} (الرعد: ٣٣) أي أنها مجرد أسماء لا حقيقة لها في الواقع.

فلما يقول المسلم: أنا أعبد الله الرحمن الرحيم اللطيف، له شواهد من رسل أرسلها الله -سبحانه وتعالى-، وكتب يقرؤها، وخلق؛ فبالتالي يتعامل مع إله لم يتركه سدى، لكن ما هي العلاقة المتبادَلة بينك وبين هذه الآلهة؟ ماذا فعلت لك هذه الآلهة؟!

يزعم المسلم -وهو على حق- أن الله خلقه ورزقه، وخلقه لحكمة، وأرسل إليه الرسل، وأنزل إليه الكتب، إذًا فما دور هذه الآلهة؟ ماذا فعلت؟ إنها مجرد أسماء!

لذلك قال الله -سبحانه وتعالى-: {أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ} (الرعد: ٣٣) هل أنت متصورٌ أنك ستخبر الله أن هناك آلهة وهو لا يعلمها -سبحانه وتعالى-؟!

{أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ} (الرعد:٣٣) قال بعض أهل العلم: ظاهر بمعنى باطل ، أو الظاهر: الكلام السطحي الذي لا حقيقة له، لا باطن له، ومجرد قشرة، ومن إسقاط هذا على واقعنا: عندما يدعي أحدٌ أن هناك آلهة بظاهر من القول، وليس على الحقيقة؛ كما يقول ذلك الملحد دوكينز في كلامه عندما لم يجد مخرجًا لكلامه وادعاءاته، هل معقول أن يكون هذا الكون جاء هكذا؟!

فيرد: يمكن!

قالوا: كيف؟!

فأجاب: قد تكون مخلوقات فضائية!

وكأنه يبحث عن أي اسم ليسد به الخانة!

وهذا ظاهر من القول، لا حقيقة له، لا واقع له!

المشركون ولا سيما من الملاحدة المعاصرين وغيرهم، لا توجد عندهم مشكلة في أن يعترف بإله كمجرد نقطة وينتهي الأمر.

آخر مناظرة رأيتها بين أحد الملاحدة وأحد المسلمين -وللأسف لم أر أن المسلم كان مُوفقًا- والشاهد: قول الملحد أنه أصبح ربوبيًا، ما معنى ربوبيًا؟! أي أثبت أن هناك إله، ما صفات هذا الإله؟!

يجيب بأنه ليس من الضروري أن يكون له صفات، بل هو أوجد الوجود فقط!

إذًا هل أوجد الوجود عبثًا؟

لم يرسل رسلًا؟

لم يُنزل كتب؟

لم يأمر؟

لم ينه؟!

فهذه المنطقة؛ منطقة أن هناك من أوجد الكون وتركنا نفعل ما نريد؛ منطقة مريحة!

قديمًا كان المشركون يصلون لتلك المنطقة المريحة عن طريق الآلهة، فهو يريد الآن أن يهرب من التكليف، وهناك إله واحد، وأرسل رسلاً، وأنزل كتابًا، وهناك يوم بعث، سيُحاسَب يوم القيامة، يشعر هكذا أنه مُحاصر، ماذا أفعل؟

كيف يخرج من هذا الحصار ليفعل ما يريده ويهواه؟!

{بَلْ يُرِيدُ الْإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ} (القيامة: ٥)

إذًا سأنكر البعث.

وماذا عن الإله؟

أبحث عن واسطة، أبحث عن شركاء، وهذه الآلهة تستطيع إرضاءها بالأموال!

فيتقرب إلى آلهته المزعومة بالقربان ثم يفجر ويفعل ما بدا له!

الطريقة الجديدة أن نثبت إلهًا لا علاقة له بالعالم بدل أن ندخل في قصة هل يوجد إله أم لا، وهذا قد نسميه: {بظاهرٍ مّنَ القَوْل} (الرعد: ٣٣) لا حقيقة له في الواقع.

كثير من الفرضيات ومحاولات الهروب ومحاولات إثبات الإلحاد، كلها تدخل تحت ظاهر من القول {أمْ تُنَبِئونهُ بما لَا يَعْلمُ في الْأرض أم بظاهرٍ مّنَ القَوْل} (الرعد: ٣٣).

فيقول الله -سبحانه وتعالى-: {بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ}(الرعد: ٣٣) لأن الإلحاد وغيره هو شيء غير مقبول عقليًا، شيء غير منطقي، لكن هو يُزَيَّنُ إليه -والعياذ بالله- يقع الإنسان في هذه الفتنة.

{بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ}(الرعد: ٣٣) وهناك قراءة: {وصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ}(الرعد: ٣٣) فلما صَدُّوا الناس عن سبيل الله؛ صُدَّوا عن سبيل الله.

فقد يُسَلَّط الإنسان على نفسه، ويكون ما يقوله من الباطن في قمة التناقض، وفي قمة السخافة؛ لكنه مُزَيَّن له وتقام له الدورات العلمية والتنظير والأبحاث ليثبتوا هذا الكلام الفارغ الذي هو مجرد ظاهر من القول؛ لكنه يؤيد أنهم يعيشون كالأنعام -والعياذ بالله- {بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} (الرعد: ٣٣)

قاعدة: ((**ومن يضلل الله فما له من هاد**)) (الرعد: ٣٣).

{ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}(الرعد: ٣٤) إما المقصد تعجيل نصرة المؤمنين عليهم، فالله قادرٌ على أن ينصر أهل الإيمان، أو العذاب كالزلازل والبراكين أو غير ذلك من الأمراض.

وإن لم يأت عذاب الدنيا إليهم {وَلعَذَابُ الْآخرَة أَشَقُّ}(الرعد: ٣٤)!

حتى نطقُ الكلمة فيه صعوبة؛ {وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ} (الرعد: ٣٤) لن يمنعهم أحد من عذاب الله -سبحانه وتعالى-.

ثم يبشر الله -سبحانه وتعالى- أهل الإيمان، الذين رضوا بالقرآن، واختاروا الوحي، ولم يطلبوا آية سوى الوحي قال الله -سبحانه وتعالى- عن جزائهم: { مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ} (الرعد: ٣٥).

{مَّثَلُ الجْنة التي وُعدَ المتَّقُونَ} (الرعد: ٣٥) أي وصف الجنة ولتلك الكلمة إعرابات ونقاشاتٌ كثيرة، واختلف المفسرون فيها اختلافًا كثيرًا؛ ف{مثل} هنا هل معناها صفة أم معناها الشيء العجيب، أم هي لفظة زائدة؟!

{ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا} (الرعد: ٣٥)

أين الخبر؟! هل هو محذوف، هذا خبر ومبتدأه محذوف، نقاشات كثيرة، ونستطيع القول أن 'المثل' هنا بمعنى: الصفة العجيبة أي الجنة وصفها عجيب!

{تَجري من تَحتهَا الْأَنْهارُ} هذه تُذكَر دائمًا مع جنة الدار الآخرة.

{مَّثَلُ الجْنة التي وُعدَ المتَّقُونَ ۖ تَجري من تَحتهَا الْأَنْهَارُ ۖ أُكُلهَا دَائمٌ وَظلهَا} (الرعد: ٣٥)

هنا قاعدة مهمة –لا أدري إن كنت ذكرتها في سورة الأنعام أم لا– لتستشعر آيات الجنة والنار جيدًا؛ تحتاج لاستحضار الواقع الذي نزلت فيه السورة لتستحضر وتُعايش آيات الجنة والنار؛ لابد أن تستحضر الواقع الذي نزلت فيه السورة؛ فمثلًا: عندما يقول ربنا في سورة الطور: {ألحقْنا بهمْ ذرّيتَهُمْ وَمَا ألتْناهُم مّنْ عَملهم مّن شَيْءٍ} (الطور: ٢١)

- الواقع في هذا الوقت كانت الأسر تُمزق، فاستحضار مشهد أبو سلمة وهو يهاجر ومعه أم سلمة وابنهم سلمة، فخرج قوم زوجته وأخذوا منه زوجته أم سلمة وقالوا له: لن تسافر بأم سلمة، ثم خرج قومه وأخذوا سلمة؛ فتفرقت الأسرة أشتاتًا؛ فحينما تنزل عليه آيات تقول: سوف تُجمَع مع أهلك يوم القيامة إن ماتوا على الإيمان؛ يستبشر المؤمن!

ذكرت ذلك في سورة محمد؛ فعندما تقرأ آيات الجنة التي تخاطب المجاهدين في سورة القتال في سورة محمد؛ ستفهم لماذا تتكلم الآيات عن هذه المعاني خصيصًا، التي تناسب الوضع؛ فكان وضع مكة –لو قلنا إن الآيات هذه مكية وهذا ما كنتُ رجحته؛ لوجود خلاف قوي في سورة الرعد؛ أهي مكية أم مدنية– فالوضع في مكة وضع غير مستقر في هذا الوقت؛ فيقول الله –سبحانه وتعالى– سوف تذهبون إلى مكان فيه استقرار {أُكُلهَا دَائمٌ} (الرعد: ٣٥) وقد كانوا يُعذّبَون في شدة الحر؛ فتأتي الآيات {وَظلهَا} (الرعد: ٣٥)، حين يسمع المريض أنه سوف يدخل الجنة بإذن الله –سبحانه وتعالى–؛ لا نصب فيها ولا وصب؛ يفرح.

- يستمتع الإنسان بسماع النعيم على قدر المعاناة التي يعيشها الآن؛ لذلك من رحمة الله بالعبد المؤمن أن يُبغِّض له الدنيا، من رحمة الله بالعبد المؤمن أنه يُقَدّر له أقدار تجعله يشتاق إلى الدار الآخرة؛ فلا يكون من: {إِنَّ الذينَ لَا يَرجُونَ لقَاءنَا وَرضُوا بالحْياة الدُّنْيا وَاطْمَأنوا بها} (يونس: ٧)

هناك مَنْ هو مِن: {لَا يَبْغونَ عَنْهَا حوَلًا} (الكهف: ١٠٨) والهاء في {عنها} عنده تعود على الدنيا لكنها في القرآن عن الفردوس –في آخر سورة الكهف–.

فهناك من هو راضٍ بالدنيا، متمسك بها، لا يريد تركها، لذلك تُنَزع روحه نزعًا عند الموت {وَالنَّازعَات غرْقا} (النازعات: ١)، لا يريدون الذهاب لله {إِنَّ الذينَ لَا يَرجُونَ لقَاءنَا وَرضُوا بالحْياة الدُّنْيا وَاطمَأنوا بها} (يونس: ٧).

فمن رحمة الله –سبحانه وتعالى– بالعبد المؤمن أن يُقَدّر له أقدارًا؛ يُبغِّض له فيها الدنيا، يتمنى لقاء الله، كل همه: متى سأقابلك يا رب!

" وأسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوقَ إلى لقاءك"[١] فيقول الله –سبحانه وتعالى– عن وصف الجنة؛ ذلك الوصف العجيب: {مَّثلُ الجْنة التي وُعدَ المْتَّقُونَ ۖ تَجري من تَحْتهَا الْأَنْهارُ ۖ أُكُلهَا دَائمٌ وَظلُّهَا} (الرعد: ٣٥)

قيل: الأُكُل الدائم؛ أي كلما قطعوا ثمرة عادت ثمرة مرة أخرى، الجنة لا تَقِل أبدًا ولا تفنى { إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾} (طه: ١١٨-١١٩) فهي دائمة الظل ودائمة الأكل، لا ينتهي!

[١] [عن عمار بن ياسر:] اللهمَّ بعِلْمِكَ الغيبَ وقُدْرَتِكَ عَلى الخَلقِ، أحْيِني ما علِمْتَ الحياةَ خيرًا لِي، وتَوَفَّنِي إذا عَلِمْتَ الوفاةَ خيرًا لي، اللهمَّ إنِّي أسألُكَ خشْيَتَكَ في الغيبِ والشهادَةِ، و أسألُكَ كَلِمَةَ الْحَقِّ فِي الرِّضا والغضَبِ، وأسألُكَ القصدَ في الفقرِ والغِنى، وأسألُكَ نعيمًا لا ينفَدُ، و أسألُكَ قرَّةَ عينٍ لا تنقَطِعُ، وأسألُكَ الرِّضى بعدَ القضاءِ، وأسألُكَ بَرْدَ العيشِ بعدَ المَوْتِ، وأسألُكَ لذَّةَ النظرِ إلى وجهِكَ، والشوْقَ إلى لقائِكَ في غيرِ ضراءَ مُضِرَّةٍ، ولا فتنةٍ مُضِلَّةٍ، اللهم زيِّنَّا بزينَةِ الإيمانِ، واجعلنا هُداةً مهتدينَ

الألباني (ت ١٤٢٠)، الكلم الطيب ١٠٦ • إسناده صحيح • أخرجه النسائي (١٣٠٥)، وأحمد (١٨٣٥١) باختلاف يسير

ما يتمناه المرء يجده -أسأل الله -سبحانه وتعالى- لي ولكم الجنة- {تِلْكَ عُقْبَى الذينَ اتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى الكَافِرِينَ النارُ} (الرعد: ٣٥).

ثم بدأ شوط؛ هذا الشوط الأخير من سورة الرعد مع بعض من الآيات السابقة، هو الذي جعل بعض المفسرين يقولون أن السورة مدنية.

من بداية هذا الشوط من سيختار أن: {وَالذينَ آتَيْناهُمُ الكتابَ} (الرعد: ٣٦) المراد بها أنهم أهل الكتاب، ويفسر بقية الآيات على هذا المعنى؛ سيكون الجزء الأخير مدني أو السورة كلها مدنية.

لكن جمع من المفسرين قالوا إن السورة مكية؛ فتكون كلمة: {وَالذينَ آتَيْناهُمُ الكتَابَ}(الرعد: ٣٦) ليس المراد بها أهل الكتاب.

ومنهم من قال: {وَالذينَ آتَيْناهُمُ الكتابَ} (الرعد: ٣٦) هم أهل الكتاب وهم بعض النصارى وأيضًا السورة مكية.

سنوضح بإذن الله -سبحانه وتعالى:-

- **الفرح بالقرءان:**

{وَالذينَ آتَيْناهُمُ الكتابَ يَفْرحُونَ بما أنزلَ إليْكَ ۖ وَمنَ الْأحْزاب مَن ينكرُ بَعْضَهُ} (الرعد: ٣٦)

من المهم جدًا أن نستحضر السياق؛ فماذا يقول السياق؟

يذكر السياق أن الكفار لا يعجبهم القرآن، فمن أول السورة لم يعجبهم القرآن؛ يقول -سبحانه وتعالى-: {وَالذي أنزلَ إليْكَ من ربكَ الحَقُّ وَلَٰكنَّ أكْثَرَ الناس لَا يؤْمنونَ} (الرعد: ١) وهم على إصرارهم في رفض القرآن، يقول لهم الله أن مُنَزّل هذا الكتاب من أوصافه ومن أسمائه وصفاته كذا وكذا وكذا..، وهم مصرون على رفضهم للقرآن!

هذا القرآن آمن به أناس وطبقوه، أيضًا مصرون على رفض هذا القرآن!

هذا القرآن لو قُدّرَ أن يكون له أثر حسيٌّ؛ لفعل وفعل وفعل، أيضًا لا يريدون القرآن!

فطوال السورة يُبين الله -سبحانه وتعالى- أنه: كما أنكم تعرضون عن القرآن؛ هناك من اطمأن بالقرآن، وهناك من طَبّق القرآن، وهناك من جاهد بالقرآن، وهناك من دخل في فرن الابتلاء من أجل نصرة القرآن -وتكلمنا عن هذا- وهناك من يفرح بالقرآن -فليس مجرد قبول القرآن- بل فرحٌ بالقرآن!

{وَالذينَ آتَيْناهُمُ الكتابَ يَفْرحُونَ بما أنزلَ إليْكَ} (الرعد: ٣٦)

لماذا جاءت: {يَفْرحُونَ بما أنزلَ إليْكَ} (الرعد: ٣٦) ولم تأتِ يفرحون بالكتاب أو بالوحي أو بالقرآن؟

هذا موطن استنباط!

من الإشارات اللطيفة هنا أنه من المهم أن تستحضر نفسية الداعية، ولن تستطيع ذلك إلا بعد أن تتخيل نفسك تشتغل بالدعوة في عهد النبي -صلى الله عليه وسلم-، وتستحضر ضغط المشركين عليك.. نريد آية، نريد آية، فتقرأُ عليهم القرآن؛ فيقولون: لا يعجبنا هذا القرآن!

هذا الضغط المستمر يكاد - ليس بالنسبة للنبي -صلى الله عليه وسلم- وإنما بالنسبة لبعض المؤمنين يكاد يجعله يبحث عن آية أخرى غير القرآن؛ بل هذا ما يحدث، فضغط كثير من النقاشات الفكرية وأهل الأهواء على المسلمين جعل بعض الناس؛ بل كثير من الناس يناقشهم بغير القرآن!

هل يعني هذا أن النقاش معهم بغير القرآن خطأ؟

لا، لكن لا يصح أن تنصرف كليةً عن الوحي -وقد تكلمتُ في تلك النقطة كثيرًا، أو تقول إن هناك قاعدة كلية تقول بأن النقاش مع أهل الباطل بالقرآن لن يؤتي ثمرة، بل منهم من أصَّل لذلك، وأنه لابد وأن تناقشهم بالعقل وفقط، وأن القرآن مجرد أخبار سمعية، وليست عقلية؛ وأُصّل على ذلك قواعد، استمرت لسنوات، وهذا خطأ!

ولطالما رد شيخ الإسلام ابن تيمية على ذلك -إن شاء الله في آخر المجلس أشير إلى مقالات في هذا المعنى-. والشاهد: أن الله -سبحانه وتعالى-

يبيّن للنبي -صلى الله عليه وسلم- أن هناك من يفرحون بما معك، فلا تزهد فيما معك من آية، هناك أُناس يفرحون بما أُنزل إليك؛ أي الذي أنزَلتُه إليك، هناك أُناس يفرحون به فتمسك به!

{فاسْتَمْسكْ بالذي أوحيَ إليْكَ} (الزخرف: ٤٣) أي لا تتركه.

فبالتالي بالنسبة لنا، هناك أُناس يفرحون بالقرآن!

من أوجه الترابط الجميلة بين سورتي نوح والجن، أول سورة الجن:

{قلْ أوحيَ إليَّ أنهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مّنَ الجْنّ فَقَالوا إنَّا سَمِعْنا قُرْآنًا عَجَبا يَهْدي إلَى الرشْد فآمَنا به} (الجن: ١-٢)

النبي -صلى الله عليه وسلم- يقف يقرأ القرآن، وفي سورة نوح قمة الإعراض في الدعوة وهذا ما حدث؛ فالنبي -صلى الله عليه وسلم- عائدٌ من الطائف وهم في قمة الإعراض، فسخر الله له الجن ، ليقول الله له: استمر في الوحي، استمر في قراءة الوحي، واستمر في تبليغ الوحي ولو أعرض عنك أهل الأرض؛ أرسلتُ إليك الجن[٢] ليستمعوا إلى القرآن، فأنت لابد أن تستمسك بالوحي، لا تجعل الضغط النفسي عليك يجعلكَ تقول: " لستُ مقتنعًا أن الوحي سيؤثر في الناس، لست مقتنعًا بقيمة القرآن، أنا أسمع عن قيمة الوحي في حياتنا، وعن قيمة الوحي في هداية الناس، لكني لست مقتنعًا بهذا!"

وتبدأ في البحث عن نفق في الأرض، أو سُلم في السماء لتأتيهم بآية؛ هذا التفكير قال الله عنه: {فلَا تكُونَنَّ منَ الجْاهلينَ} (الأنعام: ٣٥) أي الجاهلين بحكمة الله -سبحانه وتعالى- في إرسال هذا الوحي.

{وَالذينَ آتَيْناهُمُ الكتابَ يَفْرحُونَ بما أنزلَ إلَيْكَ} (الرعد: ٣٦)

وَالذينَ آتَيْناهُمُ الكتابَ: إما المقصود من أهل الكتاب هنا أهل الكتاب أو مَنْ آمن من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وغيره.. وعدَّ كثيرٌ من المفسرين بعض النصارى الذين آمنوا من نجران، وبعض النصارى الذين آمنوا، مثل ورقة ابن نوفل، وبعض اليهود الذين آمنوا، عدّوا الذين آمنوا من أهل الكتاب ببعثة النبي -صلى الله عليه وسلم-.

---

[٢] [عن عبدالله بن عباس:] انْطَلَقَ النبيُّ ﷺ في طائِفَةٍ مِن أصْحابِهِ عامِدِينَ إلى سُوقِ عُكاظٍ، وقدْ حِيلَ بيْنَ الشَّياطِينِ وبيْنَ خَبَرِ السَّماءِ، وأُرْسِلَتْ عليهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشَّياطِينُ إلى قَوْمِهِمْ، فَقالوا: ما لَكُمْ؟ فَقالوا: حِيلَ بيْنَنا وبيْنَ خَبَرِ السَّماءِ، وأُرْسِلَتْ عَلَيْنا الشُّهُبُ، قالوا: ما حالَ بيْنَكُمْ وبيْنَ خَبَرِ السَّماءِ إلَّا شيءٌ حَدَثَ، فاضْرِبُوا مَشارِقَ الأرْضِ ومَغارِبَها، فانْظُرُوا ما هذا الذي حالَ بيْنَكُمْ وبيْنَ خَبَرِ السَّماءِ، فانْصَرَفَ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهامَةَ إلى النبيِّ ﷺ وهو بنَخْلَةَ عامِدِينَ إلى سُوقِ عُكاظٍ، وهو يُصَلِّي بأَصْحابِهِ صَلاةَ الفَجْرِ، فَلَمّا سَمِعُوا القُرْآنَ اسْتَمَعُوا له، فَقالوا: هذا واللَّهِ الذي حالَ بيْنَكُمْ وبيْنَ خَبَرِ السَّماءِ، فَهُنالِكَ حِينَ رَجَعُوا إلى قَوْمِهِمْ، [الجن: ١] وإنَّما أُوحِيَ إلَيْهِ قَوْلُ الجِنِّ.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٧٧٣ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٧٧٣) واللفظ له، ومسلم (٤٤٩)

فهنا: {وَالذينَ آتَيْناهُمُ الكتابَ}(الرعد: ٣٦) أي بعض من آمن من أهل الكتاب.

{يَفْرحُونَ بمَا أنزلَ إليْكَ}(الرعد: ٣٦)

لماذا يفرحون؟!

لأنهم وجدوا ما معك من وحي، يُصدِق {مُصَدّقا لمِا بيْنَ يدَيه}(المائدة: ٤٨) يُصدِق ما معهم من كتاب {وَمُهَيْمنا عَليْه}(المائدة: ٤٨) فقبلوا بالوحي مباشرة.

{وَمنَ الْأحْزاب}(الرعد: ٣٦) أي أحزاب المشركين؛ اجتمع أحزاب المشركين، أي كانوا طوائف وكانوا {طرائقَ قدَدًا}(الجن: ١١) اجتمعوا على شيء واحد فقط؛ هو هدم الإسلام، ومن الأحزاب وكأنهم اجتمعوا في مجموعة ليهدموا الإسلام!

{وَمنَ الْأحْزاب مَن ينكرُ بَعْضَهُ}(الرعد: ٣٦) لا ينكر كله، بل ينكر بعضه!

وهناك معنى ثانٍ: أن الذين آتيناهم الكتاب أي أهل الإيمان، الذين آمنوا بك يا محمد من أصحابك، هؤلاء قد فرحوا بالوحي؛ فارضَ بهم.

أحد معاني هذه الآية تشير إلى قول الله -سبحانه وتعالى-: {وَاصْبرْ نَفْسَكَ مَعَ الذينَ يدْعونَ ربَّهم بالغدَاة وَالعَشيّ يريدُونَ وَجْهَهُ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تريدُ زينةَ الْحياة الدُّنْيا} (الكهف: ٢٨)

ما معنى {وَلَا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ تريدُ زينةَ الْحياة الدُّنْيا}(الكهف: ٢٨) هل النبي -صلى الله عليه وسلم- يريد زينة الحياة الدنيا؟!

لا، بل يريد ما معهم من زينة الدنيا لينصروا بها الدين، أي يريد أن يُسْلمَ الأكابر الأشراف، أشراف القوم... الملأ، فقد كان يؤمن معه الضعفاء وكان يتمنى إيمان هؤلاء لينصروا الدين.

فيقول الله للنبي -صلى الله عليه وسلم-: ارضَ بهؤلاء، بمن معك من الفقراء واصبر نفسك معهم.

فيقول الله له، هناك صنفٌ من الناس يفرح بما معك فارضَ به، هناك صنف من الناس يستبشر بأي كلام غير الوحي، تكلمه في الفلسفة.. تكلمه في النقاشات الفكرية يكون في قمة السعادة، وإن كلمته في القرآن، تحس أن قلبه ضيق!

لا تترك أنت الوحي لأجلهم، اثبت أنت مع الوحي، هناك أُناس يفرحون بالوحي، فارضَ بهم.

▪ أأنت مأمور بتبليغ بعض الوحي أم كل الوحي؟

{وَمِنَ الْأَحْزَابِ}(الرعد: ٣٦) الذين تحزبوا؛ سواءً من أهل الكتاب أو من المشركين {وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ} (الرعد: ٣٦) فلتنتبه لوجود جزء من القرآن هو موافق لفطرة الناس، ولم يعترضوا عليه؛ بل يكون عندهم اعتراضات على البعض.

لذلك أنت مأمور بتبليغ بعض الوحي أم كل الوحي؟!

أنت مأمور بتبليغ كل الوحي؛ {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ}(المائدة: ٦٧) النداء بالرسالة جاء مرتين في سورة المائدة –ومهم أن تركز في معاني هذيْن النداءين لاختصاصه بموطنين فقط في سورة المائدة– بالتأكيد له أهمية خاصة تستحق الدراسة.

{يا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ}(المائدة: ٦٧)

المعنى المروي عن ابن عباس: {مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ}(المائدة: ٦٧) أي كل ما أُنزل إليك من ربك، {وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ}(المائدة: ٦٧) أي وإن لم تبلغ كل ما أُنزل، وبلغت البعض فقط؛ {فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ}(المائدة: ٦٧) أي لو أنك بلغت بعض الوحي ولم تبلغ كله، فكأنك لم تُبَلغ شيئًا لماذا؟!

لأن القرآن يُؤخذ كاملًا!

إنهم يريدون كما قال الله تعالى: {وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ۖ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا} {وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا} (الاسراء: ٧٣-٧٤)

فيطلب منك في البداية طلب بسيط؛ تنازل عن هذه فقط..، والتنازُل عن الشيء القليل يؤدي إلى التنازل عن الشيء الكثير!

{وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ}(الرعد: ٣٦) أجبْهُم بقولك: {قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ}(الرعد: ٣٦) هذا هو التوحيد.

قد أعبد الله وأعبد معه غيره.. لا.

{أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلَا أُشْرِكَ بِه}(الرعد: ٣٦) هذه هي لا إله إلا الله {إِلَيْهِ أَدْعُو}(الرعد: ٣٦) ليس فقط إيمان، وإنما إيمان يترتب عليه عمل ودعاء؛ {إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ} (الرعد: ٣٦)

{وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ} (الرعد: ٣٧)

{وَكَذَٰلِكَ} كذلك شرحناها من قبل- فإما تعود على شيء ماضي وتشبهه، أو تشبهه بنفسه، وارجع للدرس الماضي، فقد كان ابن عاشور يشبهه بنفسه، أو نبحث عن معنى سابق، كما أرسلنا رسلًا من قبلك واستهزأوا بهم؛ كذلك أنزلنا هذا القرآن، فبالرغم من وضوحه، وبالرغم من أنه بلُغتِهم؛ إلا أنهم أعرضوا عنه. {وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ}(الرعد: ٣٧) أي القرآن، ستجد أن الآيات كلها من الآن تسير في سياق: هم يريدون آية، هذا السياق كان تقريبًا مرافقًا لنا من أول السورة:

ماذا هناك؟!

مُصرّون فقط، يريدون آيةً حسية، هناك قرآن، يقولون: هل هناك شيءٌ آخر غير القرآن؟

لا.

لا يوجد آية حسية؟! لا يوجد غير القرآن.

- النبي -صلى الله عليه وسلم- كان له معجزاتٌ حسيةٌ كثيرة؛ لكن حينما يكون مَنْ أمامك معانِدًا؛ عليك في تلك الحالة أن تستمسك بالوحي.

طوال السورة، هم يطلبون آيةً حسية؛ فتقرأ عليهم الوحي، وتقولُ لهم أن الوحي كافٍ للهداية.

دعوة النبي -صلى الله عليه وسلم- دعوةٌ شاملة، لو كان التحدي بالآية الحسية، فماذا سنفعل نحن عندما نشتغل في الدعوة؟

نريد أن ندعو.. فماذا سنفعل؟!

نريد أن ندعو الستة مليار كافر على وجه الأرض.. ليس معك إلا الوحي، ليس معك إلا القرآن فقط.

هل لابد أن تكلمه باللهجة الحسية فقط؟ أو بعض الآيات التي تعتقد أنت أن فيها إعجاز علميٌ؟!

هل الكلام كله حسي وفقط؟!

فما شأن هذا الكلام الذي هو موافق للفطرة؛ والذي إذا استمعه الإنسان بتَجرُدٍ، وجد أن هذا الكلام يخاطب شيئًا بداخله، وأنه يحتاج إليه -وقد تكلمت عن هذا في مُحاضرة 'أجوف' القرآن موافق له، يحتاج إليه.

- البشرية بدون خطاب خارجي من خارجها -من خارج البشرية- يكونون كالأنعام؛ يقتل بعضهم بعضًا ويسفكون دماء بعضهم بعضًا؛ لأنهم سيكونون بلا سلطان! {وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًا} (الرعد: ٣٧)أي يحكم بينكم، وقيل الحُكم هنا: المقصود به: الحكمة، أي وكذلك أنزلناه حكمةً، وبلسان عربي.. {وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم}(الرعد: ٣٧)

انظر هنا!

هذا الكلام لمن؟

للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وهو المعصوم -صلى الله عليه وسلم- في قضية التبليغ؛ فالكلام فيه تعريضٌ بنا نحن، كل من يعمل في الدعوة بعد النبي -صلى الله عليه وسلم-.

انظر للكلام: {وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ}(الرعد: ٣٧)

ولئن اتبعت اقتراحاتهم؟

لا، بل سماها الله أهواء!

إذًا الطلبات والاقتراحات كانت مجرد أهواء، مجرد شهوات، ظاهرها شبهة، ويُغلفُ داخلها شهوة.

يريد أن يفجر أمامه، ألم نَقُل من قبل: {وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا}(الرعد: ٢٦)

وهذه كانت إشارة، أن هذه الاقتراحات، وهذا العناد ليس بحثًا عن الحق، ولكنها مجرد اتباع للهوى.

فيكون من معاني {أَهْوَاءَهُم}(الرعد: ٣٧) اقتراح الآيات الحسية.

لئن استجبت إليهم، وبحثت لهم عن آية حسية، وتركت ما معك من علم -وهو الوحي- {وَلَئِن اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ}(الرعد: ٣٧)

لو فعلت ذلك وتركت ما معك من الوحي، وظللت تجادل أهل الباطل بغير الوحي؛ لن تنتصر {مَالَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ}(الرعد: ٣٧).

وسبحان الله! لا أجد أحدًا يخوض في كثيرٍ من المناظرات مع أهل الباطل، أيًا كانت المسميات، ويُكثِّر في الكلام بغير الوحي؛ إلا ويقع.

- لابد أن يكون المصدر الرئيسي لأفكارك في النقاش هو الوحي، ثم تستعمل الحجج العقلية الكثيرة؛ والوحي كافٍ!

لكن الإشكال -كما قال شيخ الإسلام- أن القضية أن الإنسان ليس خبيرًا بالآيات، وأن النصوص مليئة بالتوجيهات سواءً على مستوى العقائد، أو على مستوى الفروع الفقهية، لكن هذه نصوص تُعجِزُ الإنسان فيشعر بنقصٍ بحسب جهله بالآيات.

{وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ} (الرعد: ٣٧)

في الآية تحذيرٌ للدعاة إلى الله -سبحانه وتعالى-: إياكم أن تنصرفوا عن الوحي، إياكم أن تبحثوا عن آياتٍ أخرى مُحاولةً لإقناع الناس بغير كتاب الله وسنة النبي -صلى الله عليه وسلم-، هذا سيؤدي إلى خسارة في الجهود.

ثم يقول الله -سبحانه وتعالى-: انظر أولًا لما تفعله الشبهات والضغط النفسي من المشركين، من استمرار مطالبتهم بآيةٍ حسية، بل وتعدى قولهم للنبي -صلى الله عليه وسلم- إذا كنت رسولًا فكيف تأكل وتشرب وتتزوج مثلنا؟

إذًا كيف تكون رسولًا؟!

نستطيع أن نكون رسلًا مثلك!

بالرغم أن الله أمر النبي –صلى الله عليه وسلم– أن يقول لهم: {قلْ إنَّما أنَا بشَرٌ مّثْلكُمْ}(فصلت: ٦)، الفارق في الوحي {يوحَىٰ إلَيَّ}(فصلت: ٦) والوحي واضح المطالب: {أنَّما إلَٰهُكُمْ إلَٰهٌ وَاحدٌ}(فصلت: ٦)، يقولون للنبي –صلى الله عليه وسلم–: يفترض بك أن تكون مَلكًا، أو تكون لك جنة مختلفة عنا، أو ينزل لك شيء ينزل من السماء، أو يكون لك كنز، أو يكون لك قصر!

إذ كيف لواحدٍ مثلنا مثله، وتأكل الطعام وتمشي في الأسواق!

فكانوا يستنكرون ذلك!

فقال الله –سبحانه وتعالى–: {وَلقَدْ أرسَلْنا رسُلًا مّن قَبْلكَ وَجَعَلْنا لَهُمْ أزوَاجًا وَذريةً}(الرعد: ٣٨) لستَ بِدعًا من الرسل، ولو كان الرسول جاء مَلكًا؛ لقالوا: أنت لا تشعر بنا.. أنت مَلك، أنت لا تعيش حياتنا!

ويأتي بشر؛ فيقولوا: أنت بشر مثلنا.. لستَ مَلكًا، فكيف لنا أن نصدقك؟!

فالقضية في أي مهربٍ، أي مُحاولة للخروج؛ بمعنى يأتي مَلكٌ يعترضوا، يأتي بشرٌ يعترضوا، هي مجرد اعتراضات!

{وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾} (الحجر: ١٤-١٥)

والله لو فعلت لهم الأفاعيل، حتى لو فتحت لهم بابًا من السماء فظلوا فيه يعرجون؛ لقالوا: أنت ساحرٌ مبين!

القضية كلها أنه: {بلْ يريدُ الْإنسَانُ ليَفْجُرَ أمَامَهُ} (القيامة: ٥).

أكرر،القضية ليست في نقص الآيات، أو في عدم وضوح الآيات، {وَلقَدْ أرسَلْنا رسُلًا مّن قَبْلكَ وَجَعَلْنا لَهُمْ أزوَاجًا وَذريةً} (الرعد: ٣٨) فلا تحاول أن تأتي بآية من عندك.

{وَمَا كَانَ لرَسُولٍ أن يَأتيَ بآيةٍ إلَّا بإذْن الله} (الرعد: ٣٨) فلا تحاول أن تأتي بآية غير الوحي.

استحضِر المشهد من جديد.. يضغط المشركون على النبي -صلى الله عليه وسلم- وعلى المسلمين في مكة؛ يريدون آيةً حسية وغير مقتنعين بفكرة الرسول البشري، وأن معه كتاب!

أهل الكتاب كان نقاشهم مختلفًا، فقد كانوا يؤمنون بفكرة وجود رسول بشريّ وأن يكون معه كتاب، لكن اعتراضهم على القرآن اعتراض آخر، لذلك يأتي القرآن المكي يستشهد بهم أحيانًا.

نكرر مرة أخرى:

اعتراض المشركين الوثنيين أساسًا على فكرة الرسول البشري ومعه وحي.

أما أهل الكتاب فليس لديهم اعتراض على هذه الفكرة؛ وإنما اعتراضهم على النبي -صلى الله عليه وسلم- وعلى القرآن.

بل قيل إن فريقًا منهم في أول بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم-، ظنوا أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بُعث للعرب فقط، وأن الرسول الذي سيأتيهم آخر الزمان لم يأت بعد؛ فقالوا نؤمن بمحمد ولم تكن لديهم إشكالية، لكن لما فُوجئوا أن رسالة النبي -صلى الله عليه وسلم- رسالةً عامة؛ كفروا به؛ فاعتراضهم ليس على بشرية الرسول، ولا على إرسال الكتاب!

لذا إذا سألني أحد: هل يصح في مناقشته مع الملحدين أن يستدل ببعض حُجج النصارى التي لا تعارض الوحي؟!

فأجيبه: نعم، ليس ثمة إشكال؛ ذلك لأنه يؤمن بإله.

أو بعض حُجج اليهود ضد الملاحدة؟

نعم، لكن لا يعارض أو يصادم شيئا عندك مثل التثليث مثلًا؛ فلا يصح أن تستدل به، ثم تناقشه؛ وهذا أحد أوجه ذكر أهل الكتاب كثيرًا في القرآن المكي، فيُستشْهَدُ به، لأن المشركين كانوا يُعظّمون أهل الكتاب، وكانوا يرونهم أصحاب علم، فقد كانوا يسألونهم -كما ورد في أكثر من رواية- كانوا يسألون أهل الكتاب: كيف نختبره؟

عن ماذا نسأله؟

ماذا نفعل معه؟

من الأقرب للحق؟

من أهدى سبيلًا؟

كانوا يسألون اليهود؛ فيقول الله لهم، اسألوهم:

أليس كل الرسل بشر؟

أليس من الممكن أن يتزوجوا؟

أليس من الممكن أن يأتي بكتاب؟

ألستم تصدقونهم في أشياء وتأخذوا منهم شبهاتٍ تلقونها على النبي -صلى الله عليه وسلم-؟

أليس من الأوْلَى أن تسألوهم عن البشرية وإرسال الكتاب وإنزال الكتاب؟

اسألوهم عن هذه القضية!

بل منهم من آمن -من أهل الكتاب- فكان هذا دعمًا للنبي -صلى الله عليه وسلم-، وتأكيدًا بأن البشرية لا تتعارض مع الرسالة؛ فبشرية النبي -صلى الله عليه وسلم- لا تتعارض مع الرسالة.

ويُتصَوَّر أحيانًا أن على من يشتغل في الدين لابد وأن يكون شخصًا ملائكيًا، أو شخصًا متفرغًا تمامًا، بمعنى أنه أحيانًا يكون هناك تصورات مثالية عن العامل الديني، من القائل بأن الشخص الذي يعمل للدين لابد وأن يكون شخصًا لا يخطئ؟

نعم هو يجاهد نفسه قدر المستطاع، لكن أحيانًا التصورات المثالية تمنع الناس من العمل للدين.

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} (الرعد: ٣٨)

يقول **القرطبي**: وفي هذه الآية حضٌّ على النكاح؛ فالزواج من سنة الأنبياء.

{وَلَقَدْ أرسَلْنا رسُلًا مّن قَبْلكَ وَجَعَلْنا لَهُمْ أزوَاجًا وَذريةً وَمَا كَانَ لرَسُولٍ} (الرعد: ٣٨) أيّ رسول {أن يَأتيَ بآيَةٍ}(الرعد: ٣٨) أيّ آية {إلَّا بإذْن الله}(الرعد: ٣٨) .

القرآن المكي والمدني أيضًا، لكن القرآن المكي تحديدًا لكثرة ضغط المشركين، يركز على وظيفة الرسول، الضغط الذي كان يتعرض له النبي -صلى الله عليه وسلم- والمسلمون، كمية التحذيرات التي جاءت - وقد أشار أكثر من مفسر لهذا المعنى خاصةً ابن عاشور في بعض آيات سورة المائدة- كمية الآيات التي جاءت في الوحي تُحذّر النبي -صلى الله عليه وسلم- من أن يترك شيئًا، أو أن يترك آية، أو أن يترك الوحي، أو أن يبحث عن شيء آخر، أو أن يطيعهم أو أن يَركنَ إليهم شيئًا قليلاً أو أن يداهنهم، آيات كثيرة وتحذير كثير جدًا.

إذا كان النبي -صلى الله عليه وسلم- قال الله له كل هذا التحذير؛ فما بالنا نحن؟

إذا كان هذا للنبي -صلى الله عليه وسلم-، فمن المؤكد أن الداعية يحتاج لتأهيل نفسي؛ لأن الضغط عليه شديد.

مَنْ يعمل في الدعوة غالبًا يختصه الله -سبحانه وتعالى- برفق ورحمة بالناس؛ فأكبر شيء مؤلم عند الداعية أن يرى الناس تفرُّ باتجاه الكفر، (وأنا آخُذُ بحجْزُكُمْ عن النار)[٣]؛ فيكون جُلَّ تفكيره في أي وسيلة ينقذ بها الناس، لذلك كانت المداخل التي حاول بها المشركون الدخول إلى فتنة النبي -صلى الله عليه وسلم- ليست مداخل مادية، في البداية كانت محاولاتهم مادية، يغرونه بالمال.. بالزواج.. بالرئاسة..، فلما رأوا أن لا فائدة من ذلك؛ قالوا نعبد إلهك سنة وتعبد إلهنا سنة!

ثم طلبوا منه أن يطرد الفقراء، وسيكون معك الملأ وهم أحسن الناس لكن اطرد الفقراء أولًا.. انظر على ماذا يساومون النبي -صلى الله عليه وسلم-، يساومونه بالعبادة، أي أنهم سيؤمنون، إنهم يعلمون أن أحب شيء إليه أن يؤمنوا.

[٣] [عن جابر بن عبدالله:] مَثَلِي ومَثَلُكُمْ كَمَثَلِ رَجُلٍ أوْقَدَ نارًا، فَجَعَلَ الجَنادِبُ والْفَراشُ يَقَعْنَ فيها، وهو يَذُبُّهُنَّ عَنْها، وأنا آخِذٌ بحُجَزِكُمْ عَنِ النارِ، وأَنْتُمْ تَفَلَّتُونَ مِن يَدِي.

مسلم (ت ٢٦١)، صحيح مسلم ٢٢٨٥ • [صحيح]

لفظ الطمع لما جاء مع المؤمنين جاء مع الدعوة إلى الله: {أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ} (البقرة: ٧٥) فنحن طمعُنا أن يؤمن الناس، أهل الإيمان يتمنوا أن يؤمن الناس، وهذه يستغلها أهل الباطل.

وليس شرطًا أن يكون مشركًا، لكن قد يقول لك سأتركك تعمل في الدعوة، ولكن لي طلب صغير!

- فالخلاصة أن كمية التحذيرات تلك، لها دلالة، أي التحذيرات التي جاءت في الوحي: "ولئن اتبعت أهواءهم.. إياك أن تركن إليهم.. إياك أن تعبد آلهتهم.. إياك أن تطيعهم.. تحذيراتٌ كثيرة"؛ إذًا هذه التحذيرات لنا منها أكبر النصيب، فالنبي -صلى الله عليه وسلم- عصمه الله -سبحانه وتعالى- في قضية التبليغ تحديدًا، تبليغ الرسالة، فماذا عنا؟

إذًا فمسألة الضغط الذي يتعرض له الداعية مهمة جدًا، فأنت تحتاج أن تستحضر هذا المعنى وأنت تقرأ هذا السياق وهذه الآيات؛ فالله -سبحانه وتعالى- يقول: {وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ}(الرعد: ٣٨) -توضيح وظيفة الرسالة كما سيأتي معنا- {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ}(الرعد: ٤٠) وظيفتك واضحة، يطلبون آية أو خلافها فمهمتك التبليغ فقط، يقول الله لك: {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ}(الرعد: ٤٠)

فحتى نتيجة البلاغ ليس حتمًا أن تراها -كما سنرى الآن-.

{وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ}(الرعد: ٣٩- ٣٨)

هذه الآية من أكثر الآيات إشكالًا في القرآن؛ اختلف فيها المفسرون اختلافًا كبيرًا، سأمشي مع السياق أولًا لئلا نشعر بوجود إشكالية ثم نذكر من أين جاء الإشكال عندهم.

السياق الآن يخبرنا أن المشركين يريدون آية حسية، والقرآن هنا في سورة الرعد لمح أن الآية الحسية قد تكون قارعة أي عذابًا دنيويًا، إذًا من الممكن أن يجعل الله الآية الحسية عذابًا دنيويًا؛ فيكون السياق؛ أن الذين لا يعجبهم القرآن، يريدون آيةً حسية؛ أو أن الله قد يُعجل عليهم العذاب الذي هو العذاب الحسي بطلبهم آية حسية وهي ما يريدونه؛ فيقول الله لهم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- هو رسول، لن يأتي بآية إلا أن يأذن الله.

{لكُلّ أجَلٍ كتابٌ}(الرعد: ٣٨) تذكر بعض الروايات فيما ذكره الإمام مجاهد: أن المشركين لما سمعوا قول الله -سبحانه وتعالى-: {وَمَا كَانَ لرَسُولٍ أن يَأتيَ بآيَةٍ إلَّا بإذْن الله لكُلّ أجَلٍ كتابٌ}(الرعد: ٣٨) ظنوا أن الأمر انتهى، وقالوا لن يَنزل علينا عذاب، لسنا خائفين منك، فقال الله بعدها: {يَمحُو الله مَا يشَاءُ وَيثبتُ}(الرعد: ٣٩)

الله قادرٌ أن يُنَزّل عليكم العذاب.

ما علاقة {يَمحُو الله مَا يشَاءُ وَيثبتُ}(الرعد: ٣٩) بالسياق الذي نحن بصدده؟

واحد من اثنين:

_الله قادر أن ينزل الآيات التي يريدها.

_أو أن الله قادر أن يُعجل العذاب عليكم.

هذا هو السياق.

ومِن أكثر مَنْ توسع في تفسير تلك الآيات من المفسرين: الإمام القرطبي، فقد جمع كل الأقوال فيها، ومن المتأخرين: الإمام الشوكاني، وسأذكر الآن من أفرد لها تصنيفًا خاصًا بها، هذه الآية تحديدًا.

{يَمحُو الله مَا يَشَاءُ وَيثبتُ}(الرعد: ٣٩) هل تعني أن القدر قد يتغير؟

فمن يَمشي مع السياق، يقول لا، الموضوع لا علاقة له بالقدر والخلاف العقدي هذا، وهذا ما فعله الإمام الطبري، فهو من المتقدمين الذين يرجحون بالسياق، ومن المتأخرين الذين يرجحون بالسياق: الإمام القاسمي؛ فيكون معنى الآية بكل بساطة -وهذا مروىٌ عن الحسن ومجاهد أيضًا- "الله قادرٌ على أن يُميتكم وأن يُنزِّل عليكم العذاب، فمن حان أجله؛ هذا قد محاه الله، أهلكه الله.

و{يثبت} هذا من أبقاه الله؛ فيا أيها المعترضون.. أيها الساخرون من النبي -صلى الله عليه وسلم-، المستعجلون بالعذاب، الله يَمحوا من يشاء منكم ويُثبت من يشاء، {وَعندَهُ أمُّ الكتاب}(الرعد: ٣٩) في علمه -سبحانه وتعالى-، أو في اللوح المحفوظ وهذا الأشهر.

أو {يَمحُو اللهُ مَا يشَاءُ}(الرعد: ٣٩)أي يغيّر الله شكل الآيات كما يشاء لأن هناك أُناس قالوا: ألستَ تستشهدُ بالرسل السابقة؟

نحن نريد آية كآيات الرسل السابقة.. نريد آيةً كالعصا؛ لماذا يختص بها سيدنا موسى؟

نريد منك أنت آية العصا أو نريد منك آية إحياء الموتى -وتكلمنا عن هذا سابقاً في آية {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ به الجِبَالُ أَوْ قطعَتْ به الْأَرضُ أَوْ كُلمَ به المَوْتىٰ}(الرعد: ٣١).

ف {يمَّحو الله ما يشاء}(الرعد: ٣٩) أي يُغيّر الله طريقة الآيات، وتكلمت في الدرس السابق عن حديث: (وَإِنَّما كَانَ الذي أوتيتُ وَحْياً أَوْحَاه اللهُ إِلَيَّ)[٤]

فالآية هنا اختلفت عن الأمم السابقة، وأن آية النبي -صلى الله عليه وسلم- في الكلمة حتى تستمر دعوته إلى يوم القيامة.

إن الآية الحسية مرتبطة بوجود النبي -صلى الله عليه وسلم-، لأن الآية الحسية لا يفعلها إلا نبي، فلو مات توقفت.

مات سيدنا موسى فماذا حدث للعصا؟ لم تشق البحر بعد ذلك.. فقد كان هو الذي يشق البحر بها؛ فالآية الحسية مرتبطة بوجود النبي؛ لذلك كانت دعوة كل نبيٍّ دعوةً مخصوصة ليست دعوةً عامة؛ لكن لما كانت آية النبي -صلى الله عليه وسلم- هي الوحي، والوحي يُتناقَل بين الناس، فكانت آية عامة لذا نحن ننقلها، (بلغوا عني ولو آية)[٥] احملوا عني هذه الآية للناس، بلغوا عني هذه المعجزة -وأنا لا أحب أن أستعمل لفظ المعجزة، لفظ الآية أضبط- لكن بلغوا عني هذه المعجزة للناس.

هذا المعنى قريب للسياق، ببساطة جدًا وكما قلت هذا ترجيح الإمام الطبري: {يَمحُو اللهُ مَا يشَاءُ وَيثبتُ}(الرعد: ٣٩) أي يُهلك الله من جاء أجله {وَيثبتُ} يبقي من شاء، والله قادر على أن يهلكه.

---

[٤] [عن أبي هريرة:] ما مِنَ الأنْبِياءِ نَبِيٌّ إلّا أُعْطِيَ مِنَ الآياتِ ما مِثْلُهُ أُومِنَ، أوْ آمَنَ، عليه البَشَرُ، وإنَّما كانَ الذي أُوتِيتُ وَحْيًا أوْحاهُ اللَّهُ إلَيَّ، فأرْجُو أنِّي أكْثَرُهُمْ تابِعًا يَومَ القِيامَةِ.

البخاري (ت ٢٥٦)، صحيح البخاري ٧٢٧٤ • [صحيح] • أخرجه البخاري (٧٢٧٤) واللفظ له، ومسلم (١٥٢)

[٥] [عن عبدالله بن عمرو:] بلِّغُوا عنِّي و لَوْ آيةً، و حدِّثُوا عن بَنِي إسرائِيلَ و لا حَرَجَ، و مَنْ كذَبَ عليَّ مُتعمِّدًا فلْيَتبوَّأْ مَقعَدَهُ من النارِ.
الألباني (ت ١٤٢٠)، صحيح الجامع ٢٨٣٧ • صحيح • أخرجه البخاري (٣٤٦١)

{وَعندَهُ أمُّ الكتاب}(الرعد: ٣٩) في اللوح المحفوظ: علمُ كل شيء، إذًا متى سيموت هؤلاء الناس؟

أليس الله بقادرٍ على أن يُميتهم؟

متى سيموتون يا رب؟

متى ستُهْلكهم يا رب؟

- **دورك تبليغ الناس:**

تأتي الإجابة في الآية بعدها: {وَإِن مَّا نرِيَنكَ بَعْضَ الذي نعدُهُمْ أوْ نَتَوَفَّيَنكَ فإنَّما عَلَيْكَ البلَاغُ وَعَلَيْنا الحْسَابُ}(الرعد: ٤٠) قد تراه، وقد لا تراه، هل من الممكن أن أموتَ، قبل أن أرى هلاك أحدهم؟

نعم!

هل من الممكن أن أموت قبل أن أرى أي نصر؟

نعم!

وقد أظل حيًا وأرى بعض النصر في حياتي؟

نعم!

{وَإِن مَّا نرِيَنكَ بَعْضَ الذي نعدُهُمْ}(الرعد: ٤٠) ممكن ترى بعض التمكين {أوْ نَتَوَفَّيَنكَ}(الرعد: ٤٠) فما هو دورك أنت؟

دورك الذي تقوم به إلى أن يحين موتك: {فَإنَّما عَلَيْكَ البلَاغُ}(الرعد: ٤٠) دورك تبليغ الناس.

{وَعَلَيْنا الحْسَابُ}(الرعد: ٤٠)

الحساب سواءٌ عجَّلناه له في الدنيا، عجَّلناه في صورة صاعقة.. عجَّلناه في صورة قارعة.. عجَّلناه في صورة سيوف المؤمنين في الفتوحات.. عجَّلناه في خسف، أيًا كان التعجيل، أو أخرناه إلى يوم القيامة، هذا ليس من شأنك؛ بل هذا من أمر الله -سبحانه وتعالى-، {فإنماعَلَيْكَ البلَاغُ وَعَلَيْنا الحْسَابُ}(الرعد: ٤٠) أُكملُ مع هذا السياق وبعد ما أنتهي سأرجع للآية التي فيها الإشكال ثانيةً.

يقول الله لهم يا أيها المعترضون على آية القرآن؛ الله قادرٌ على أن يهلككم وقتما يشاء، وهذا في علمه -سبحانه وتعالى-، ونحن كمؤمنين متى سنرى هذا؟

أتمنى أن أرى هلاك أهل الباطل، حتى تَقر عيني ويشفي صدور قوم مؤمنين؟

{وَإِن مَّا نرِيَنكَ بَعْضَ الذي نعدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنكَ}(الرعد: ٤٠) وما هو دوري أنا؟

{فإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلَاغُ}(الرعد: ٤٠) ولا تشغل بالك متى يأتي الحساب، {وَعَلَيْنا الْحِسَابُ}(الرعد: ٤٠) لا تُشغِل بالك بمتى سيعاقب فلان؟

ومتى سيموت فلان؟

ومتى سيُقَطعُ فلان؟

ومتى سيُعذَّب فلان؟

لا تشغل بالك!

فقد يتوب الله عليه {فإِنَّمَا عَلَيْكَ البَلَاغُ وَعَلَيْنا الحِسَابُ}(الرعد: ٤٠) وكيف سيعتبرون هم؟

{أولم يَرَوْا أَنَّا نَأتي الْأَرضَ ننقُصُهَا منْ أطرافهَا وَالله يَحْكُمُ لَا مُعَقّبَ لحكْمه}(الرعد: ٤١)

هذه الآية لو أنها مكية، يكون معناها: أولم يرَ المشركون إلى الأمم السابقة كيف أهلكهم الله -سبحانه وتعالى-؟

وهذا معنى نقْص الأرض من أطرافها {أَنَّا نَأتي الْأَرضَ ننقُصُهَا منْ أطرافهَا}(الرعد: ٤١) أنه كانت هناك أمةٌ عظيمةٌ في اليمن أهلكها الله، أمةٌ عظيمةٌ في العراق وحضارةٌ عظيمةٌ أهلكها الله، وأمةٌ وحضارةٌ وعلمٌ في مصر أهلكها الله -سبحانه وتعالى-، حضاراتٌ وأمم نَقصت الأرض من أطرافها {أولم يَرَوْا أَنَّا نَأتي الْأَرضَ ننقُصُهَا منْ أطرافهَا}(الرعد: ٤١)

والآثار باقية!

الكفار المستعجلون بالعذاب، ويستهزؤون بالنبي -صلى الله عليه وسلم- ويطالبون بالآية الحسية واستهزأوا {وَلَقَد اسْتُهْزئَ برسُلٍ} (الرعد: ٣٢) بعد ما جاءهم التحذير بالقارعة، بعد ما جاء التحذير

بالآية الحسية والعذاب الدنيوي استهزأوا بالنبي -صلى الله عليه وسلم-،يقول الله لهم أولم يرى الذين كفروا {أولم يَرَوْا أنَّا نَأتي الْأرضَ ننقُصُهَا منْ أطرافهَا}(الرعد: ٤١) هذا لو كانت مكية.

أما لو كانت مدنية، فقد بدأ يحدث للنبي -صلى الله عليه وسلم- بعض الفتوحات والانتشار قبل فتح مكة فيقول الله لهم أولم يرى الذين كفروا {أولم يَرَوْا أنَّا نَأتي الْأرضَ ننقُصُهَا منْ أطرافهَا}(الرعد: ٤١) بدأ يحدث الفتح، فاحذروا أن يحلَّ النبي -صلى الله عليه وسلم- قريبًا من داركم -كما ذكرنا على القول الثاني- أو تَحلُّ أنت يا محمد قريبًا من دارهم أي في فتح مكة، أولم يرَ الذين كفروا {أولم يَرَوْا أنَّا نَأتي الْأرضَ ننقُصُهَا منْ أطرافهَا وَالله يَحْكُمُ لَا مُعَقّبَ لحكْمهِ}(الرعد: ٤١)

والله إذا حكم بذلك، فلا مُعقِب لحكمه، فإذا حكم الله عليكم بالهلاك فلا مُعقِب لحكمه، والله يحكم أي لا أحد يراجعُ الله ولا يسأله ولا يرد هذا الحكم {وَالله يَحْكُمُ لَا مُعَقّبَ لحكْمه وَهُوَ سَرِيعُ الحْسَابِّ}(الرعد: ٤١).

فكيف سيواجهون هذا الضغط؟ هذا الخطاب القوي؟ ودعوة النبي -صلى الله عليه وسلم- القوية؟

كيف سيواجهونها؟

وكيف سيواجهون دعوة المؤمنين؟ بالمكر.

{وَقدْ مَكَرَ الذينَ من قَبْلهمْ}(الرعد:٤٢)

مكرٌ عن طريق مُحاولة اغتيال النبي -صلى الله عليه وسلم-، مُحاولة صرف الناس عن الدين، مُحاولة تعذيب المسلمين، مُحاولة فتنة الناس بالشبهات، مكر عظيم.

{وَقدْ مَكَرَ الذينَ من قَبْلهمْ}(الرعد:٤٢)، هنا كلمة جميلة للزمخشري يقول: فجعل الله مكرهم كلا مكر {فلله المكْرُ جَميعًا}(الرعد:٤٢) أي أن ما يفعلوه، كلا شيء، لا وجود له!

لماذا كأنه لا وجود له؟

{يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ}(الرعد:٤٢)

كل شيء تحت مشيئة الله وإرادته –لما تكلمنا في سورة العنكبوت وقلنا إن جهد أهل الباطل في صناعة الباطل كجهد العنكبوت.

منذ فترة –ولله المثل الأعلى– رأيتُ عنكبوتًا يصنع بيت العنكبوت وهو يتعب فيه كثيرًا ليمسك نملة، وبعد ذلك وقعت نملة في شبكه، وأخذ يلف النملة في مجهود شاق منه وأخذ زمنا طويلًا في هذا –ولله المثل الأعلى– العنكبوت بالنسبة لك ماذا؟

كل الجهد الذي بذله بعد ما صنع الشبكة وأوقع النملة، كل الجهد الذي صنعه تستطيع هدمه بلا عناء!

{إِنَّمَا قَوْلنا لشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقولَ لهُ كُن فَيكُونُ}(النحل: ٤٠) لكن القضية {ذَٰلكَ وَلوْ يشَاءُ الله لَانتصَرَ منْهُمْ وَلَٰكن ليَبْلوَ بَعْضَكُم ببَعْضٍ}(محمد: ٤)

- هؤلاء بجهودهم في الباطل يُخرجون الطاعات التي بداخلنا، التي ما كانت لتخرج لولا جهودهم في الباطل، أي أن جهد أهل الباطل استخرج من أهل الحق دماءً، وأموالًا، وجهودًا، ما كانت لتخرج لولا هذه الجهود؛ فهؤلاء يُخرجُون ما بداخلنا من طاعات، بل لن يكون المرء شهيدًا – يلقى الله –سبحانه وتعالى– شهيدًا– في المعارك، إلا بوجود أهل الباطل.

{ذَٰلكَ وَلوْ يشَاءُ الله لَانتصَرَ منْهُمْ وَلَٰكن ليَبْلُوَ بَعْضَكُم ببَعْضٍ}(محمد: ٤)

{ فلله المكْرُ جَميعًا ۖ يَعْلمُ مَا تكْسبُ كُلُّ نَفْسٍ}(الرعد: ٤٢)

كل تخطيط، وكل تدبيرٍ، سواءً كان أمريكا، مع روسيا، مع الصين، أو كل منظومات التدبير لإهلاك الإسلام أيًّا كان وأيًّا كان التوجه، وأيًّا كانت الطريقة {يَعْلمُ مَا تكْسبُ كُلُّ نَفْسٍ}(الرعد: ٤٢) والعاقبة للمتقين {وَسَيَعْلمُ الكُفَّارُ لمَنْ عقْبَى الدَّار}(الرعد: ٤٢) في الدنيا قبل الآخرة، التي قد لا نراها نحن.

{وَإن مَّا نرينَكَ بَعْضَ الذي نعدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّينَكَ}(الرعد: ٤٠)

فليس شرطًا أن ترى النصر؛ لكن لابد أن تموت وأنت موقنٌ أنك على الحق.

بعد كل هذا التوضيح طوال السورة.. {وَيَقُولُ الذينَ كَفَروا لسْتَ مُرْسَلًا}(الرعد: ٤٣)

ماذا أقول لك بعد كل هذا التوضيح.. ولاتزال مُصرًا؟!

{لسْتَ مُرْسَلًا}(الرعد: ٤٣)

قل لهم: {قلْ كَفَىٰ بالله شَهيدًا بَيْني وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عندَهُ علْمُ الكتاب}(الرعد: ٤٣)

انتهى الأمر!

فلن أبحث لك عن آيات، لأقنعك بها، ماذا تعني {كفى بالله} إذا كان هو لا يؤمن بالله من الأساس؟!

كفى بالله ماذا تعني؟

{كَفَىٰ بالله شَهيدًا}(الرعد: ٤٣)

سيشهد الله لي -وهذه شرحتها بالتفصيل سورة الأنعام، وقد تكرر لفظ الشهادة في سورة الأنعام مرتين، في أولها، وآخرها- ما معنى سيشهد الله لي؟!

أن الله سيدبر ويرتب أمورًا تنصر أهل الحق، الله سيشهد لدعوة النبي -صلى الله عليه وسلم- أنها الحق وقد كان!

لا توجد أسباب، وينتشر الإسلام، الإسلام ينتشر الآن في فرنسا وألمانيا بصورة عجيبة، ضعف.. سقوط رموز.. وتعذيب.. وتَأخُّرٌ مادي..، ورغم ذلك ينتشر الإسلام!

{قلْ كَفَىٰ بالله شَهيدًا}(الرعد: ٤٣)

الله يغرس لهذا الدين.

{قلْ كَفَىٰ بالله شَهيدًا بَيْني وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عندَهُ علْمُ الكتاب}(الرعد: ٤٣)

أيضًا سيشْهدون لي، ومن عنده علم الكتاب سيكون شهيدًا لي، من الذي عنده علم الكتاب الذي سيشهد للنبي -صلى الله عليه وسلم-؟

إما أهل الكتاب الذين آمنوا كعبد الله بن سلام، واعترض سعيد بن جبير وغيره وقال إن السورة مكية فكيف يكون عبد الله بن سلام؟

كان وغيره يرفضون أن يكون هو عبد الله بن سلام.

وغيره قال لا، هو عبد الله بن سلام لأنه نفسه عبد الله بن سلام في أثر-وإن كان فيه ضعف- في وقت حصار عثمان؛ لما أراد أن يدافع عن عثمان -رضي الله عنه-، حينما كان خليفة راشد في آخر أيام حياته -رضي الله عنه-، دخل عبد الله بن سلام يدافع عن عثمان بن عفان وقال: أنا نزلت فيَّ هذه الآيات، لكن الحديث فيه ضعف؛ فحتى لو نزلت فيه، أي هو ممّن يصْلح أن تكون فيهم هذه الآيات.

{وَمَنْ عندَهُ علْمُ الكتاب}(الرعد: ٤٣)

إما الذين آمنوا من أهل الكتاب أو المؤمنين -فنسأل الله أن يرزقنا وإياكم علم الكتاب-، لذلك قال بعض أهل العلم أنهم الصحابة، أو هم كل مؤمن آتاه الله علمًا في الكتاب، سوف يشهد للنبي -صلى الله عليه وسلم-نسأل الله أن نكون منهم، تشهد أي أن تكون شهيدًا للنبي -صلى الله عليه وسلم- أن دعوته حق، بتطبيق سنته، وبنشر دينه.

أو {وَمَنْ عندَهُ علْمُ الكتاب}(الرعد: ٤٣) هو الله؛ فيكون معنى الآية: قل كفى بالله وبمن عنده علم الكتاب شهيدًا بيني وبينكم.

إذًا ف{مَنْ عندَهُ علْمُ الكتاب}(الرعد: ٤٣) إما أهل الكتاب أو المؤمنين من علماء أهل الإيمان أو الله -سبحانه وتعالى-.

فلو قلنا إن المعنى -لأن هناك قراءة، وإن كانت شاذة، إلا أنها تأتي بأسانيد صحيحة، لكن لا يُقرَأ بها أي يصلح أن نأخذ منها قولاً في التفسير فالقراءة الشاذة التي جاءت بأسانيد صحيحة، تصلح للتفسير لكن لا يُقرَأ بها- قراءة: {ومِنْ عنْدِه علمُ الكتاب}(الرعد: ٤٣)

وهناك قراءة أضعف: {ومِنْ عنْدِه عُلِمَ الكتاب}(الرعد: ٤٣) أي من عند الله -سبحانه وتعالى-؛ المقصد كتاب الله.

بدأت السورة أنهم يعرضون عن الكتاب، ثم بعد ذلك في الآية الثانية {الله} وَصْف مُنزّلُ الكتاب، وفي ختام السورة هنا أن الله -سبحانه وتعالى- هو -لو أخذنا بقول هو عنده علم الكتاب- فسوف يشهد لك أيها النبي -صلى الله عليه وسلم-؛ فتكون السورة بدأت بالإعراض عن الوحي، وأن الله -سبحانه

وتعالى- بقدرته وبرحمته وبعلمه أنزل هذا الوحي، وتكلم به -سبحانه وتعالى-، ثم الختام: استمرار المشركين في الإعراض عن الوحي.

نرجع لآية -سنذكر هنا بعضًا من القواعد في التفسير- نرجع لقوله تعالى: {لكل أجل كتاب يَمحُو الله مَا يشَاءُ وَيثبتُ ۖ وَعندَهُ أمُّ الكتاب}(الرعد: ٣٩)

ما معنى لكل أجل كتاب؟

أجل: مدة محدودة مضروبة، فالمعنى لكل مدة، كل مدة وضعها الله، ما معنى لكل مدة؟

أي مثلًا قدّر الله أن الأمة الفلانية الفرعونية أو حضارة كذا، أي أمة تعيش من سنة كذا لسنة كذا، أو الأعمار على مستوى الأفراد، الآجال على مستوى الأفراد أو على مستوى الأمم لكل أجل كتاب، فمثلًا كانت أمة ثمود لها أجل تنتهي عنده، قوم نوح كان لهم أجل ينتهوا عنده، كل هذا كان مكتوبًا، كان بأمر مُقدَر بحسبان، إذًا لكل أجلٍ سواءً على مستوى الأفراد نحن أو الأمم {لكُلّ أجَلٍ كتابٌ}(الرعد: ٣٨)،هذا الكتاب ظاهر الكلام أنه قد يتغير {يَمحُو الله مَا يشَاءُ وَيثبتُ ۖ وَعندَهُ أمُّ الْكتاب}(الرعد: ٣٩)

ما جعل المفسرين يقفوا هنا ويختلفوا -لدرجة أنه هناك كتاب من أقوى ما كُتب في شرح هذه الآية عقديًّا اسمه المحو والإثبات في المقادير تأليف دكتور عيسى عبد الله السعدي- لماذا كانت هذه الآية سبباً في ذلك الإشكال؟

لدينا نصوص في القرآن والسنة ظاهرها أن المقادير والأقدار التي كُتبَت، لا تغيير فيها، جف القلم بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة،

إذًا الموضوع انتهى، {فَإذَا جَاءَ أجَلهُمْ لَا يسْتأخرونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يسْتَقْدمُونَ}(الأعراف: ٣٤)،

إن كل شيءٍ مُقدّر، (رُفعت الأقلام وجفت الصحف)[٦] ، عندنا نصوص في القرآن وفي السنة أن الأقدار لا تتغير، وهناك نصوص أخرى أن الأقدار تتغير كالذي يصل الرحم: (يبْسَطَ لهُ في رزقه أوْ ينْسَأَ لهُ في أثره أو يُبارك له في عمره أو يمد له في أجله)[٧].

وهناك نصوص أخرى، كالتي معنا: {يَمحُو اللهُ مَا يشَاءُ وَيثبتُ} (الرعد: ٣٩)

وكذلك: {وَمَا يعَمَّرُ من مُّعَمَّرٍ وَلَا ينقَصُ منْ عمُرِه}(فاطر: ١١)

إذًا فكيف نفهمها إذْ ظاهرها التعارض؟!

من العلماء من قال أن كل شيء انتهى؛ فلا محو ولا إثبات في أي شيء؛ فكيف يكون معنى: {يَمحُو اللهُ مَا يشَاءُ وَيثبتُ}(الرعد: ٣٩)؟

قالوا بأن الموضوع لا علاقة له بالأقدار نهائيًا، ولكن الموضوع كما قلنا في السياق أن يُهلك من جاء أجله ويُبقي من كتب الله أنه يَبْقى، وليس له علاقة بتغيير الأقدار، بمعنى أن صحيفتك التي عندما وُلدتَ جاء مَلكٌ ونُفخ فيك الروح، فقال الله -سبحانه وتعالى-: اكتبوا..، وكُتبَ لحظة ولادتك: الأجل، وشقيٌّ أم سعيد، وكل شيء كُتب، الرزق كُتب، هذا لا يتغير.

هذا فيمن رجح تلك النصوص.

وهناك من قال لا، بل يحدث تغيير، وأشهر النصوص أن العمر يزيد بسبب أعمال الخير، وأن البر يزيد في العمر، وأن واصل الرحم يبسط له في عمره وأنه {يَمحُو اللهُ مَا يشَاءُ وَيثبتُ}(الرعد: ٣٩)

---

[٦] [عن عبدالله بن عباس:] كنتُ خلفَ رسولِ اللهِ ﷺ يومًا قال يا غلامُ، إني أعلِّمُك كلماتٍ: احفَظِ اللهَ يحفَظْك، احفَظِ اللهَ تجِدْه تُجاهَك، إذا سألتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعنْتَ فاستعِنْ باللهِ، واعلمْ أنَّ الأمةَ لو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشيءٍ، لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه اللهُ لك، وإنِ اجتمعوا على أن يضُرُّوك بشيءٍ لم يضُروك إلا بشيءٍ قد كتبه اللهُ عليك، (رُفِعَتِ الأقلامُ وجَفَّتِ الصُّحُفُ)

الترمذي (ت ٢٧٩)، سنن الترمذي ٢٥١٦ • صحيح

[٧] [عن أنس بن مالك:] أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: مَنْ سَرَّه أنْ يُعظِمَ اللهُ رِزْقَه، وأنْ يَمُدَّ في أجَلِه، فَلْيَصِلْ رَحِمَه.

شعيب الأرنؤوط (ت ١٤٣٨)، تخريج المسند ١٢٥٨٨ • صحيح • أخرجه أحمد (١٢٥٨٨) واللفظ له

وأنه {وَمَا يعَمَّرُ من مُّعَمَّرٍ وَلَا ينقَصُ منْ عمُره}(فاطر: ١١)، ردوا على كل الآيات وقالوا أنها معنويات، وردوا على كل الآيات وقالوا أن: {يَمحُو اللهُ مَا يشَاءُ وَيثبتُ}(الرعد: ٣٩) من اختار هذا القول قال أنه ليس لها علاقة وأن: {منْ عمُره}(فاطر: ١١) من عمر شخصٍ آخر، بل وقالوا المقصود به البركة في العمر ولا توجد زيادة ولا تغيير والصحف كلها كتبت ولا يوجد تغيير، قالوا هذا، وأرى أن هذا القول ضعيف.

وهناك من رجّح القول الثاني؛ قالوا كل شيء يتغير، كل الصحف تتغير، وفي هذا أيضًا إشكال.

السؤال هنا: التغيير..، المحو والإثبات في أي كتاب؟ وفي أي شيء؟

هذان السؤالان اللذان حيرا العلماء، وفي هذا الكتاب ملخص لهذه القضية، أين يحصل المحو والإثبات، وهذه مسألة عقدية؛ في أي كتاب وفي أي شيء؟

منهم من قال المحو والإثبات في كل شيء إلا في أربعة أمور؛ وحدّدوها بالأجل والشقاوة والسعادة والرزق والأعمال التي تعملها، والباقي يمكن أن يتغير، بعض الأشياء كمحو الذنوب، أو أن يكون صالحًا، بعض الأشياء تتغير.. لكن هذه الأمور لا تتغير.

المحو والإثبات عام وهذا ظاهر الآية {يَمحُو اللهُ مَا يشَاءُ وَيثبتُ}(الرعد: ٣٩) ظاهر الآيات أن المحو والإثبات عام في كل الأمور.. في الأجل، في الرزق، شقي أم سعيد، كيف؟

وفي أي كتاب؟

ما سأذكره هو الملخص، وسأذكر لكم أسباب الخلاف.

يوجد اللوح المحفوظ، ويوجد كتاب سنوي في ليلة القدر، ويوجد كتاب يحدث مع ولادة الإنسان الذي هو عمره منذ لحظة ولادته، في هذين الكتابين -الأخيرين- يحدث التبديل وهذا اختيار جمع من العلماء، عندنا ثلاث كتب، وبعضهم قال أربعة، لكن عندنا ثلاث كتب:

اللوح المحفوظ: وهذا الذي هو مكتوب فيه كل شيء، قال الله للقلم اكتب؛ فكتب كل شيء {وَعندَهُ أمُّ الكتاب}(الرعد: ٣٩) المقصود بها اللوح المحفوظ، لأن بعض الناس قال كلمة {أمُّ الكتاب} هي علم الله.. لا، نحن نقول إن هناك كتاب حقيقي اسمه اللوح المحفوظ، وهذا لا يحدث فيه تبديل ولا محو

ولا إثبات بل هو كما هو، لا يحصل فيه تغيير، من العلماء من قال كالسيوطي والشوكاني قال احتمال يحدث فيه لكن هذا ليس بالراجح.

هناك كتابان آخران: أحدهما يكتب مع ولادتك، والآخر السنوي في ليلة القدر، وهذا قد يُغيَّر، لأنه يكون أمام الملائكة فقط؛ فيقال للملائكة: امسحوا كذا واكتبوا كذا، بعض الناس قال لا، فالمكتوب في هذه الكتب مُعلَق، مُعلَق تعني أنه مكتوب في كتابه إن وصل رحمه فيعيش إلى ستين سنة، وإن لم يصل فيعيش إلى أربعين سنة، لكن لا نحتاج إلى هذا.

لماذا كان الإشكال في هذه الآيات؟

وهذه نقطة مهمة نفهمها في التفسير، أحيانًا هناك شخص لديه عقائد.. أي الفلاسفة والمعتزلة والأشاعرة والسلف عندهم اختلافات في قضايا معينة -طبعًا الأشاعرة أقرب بكثير من هؤلاء-، لكن كل واحد منهم كان له تصور على أساسه يفسر تلك الآية، أي المعتزلة مثلًا عندهم القول بالأجلين، ماذا يعني القول بالأجلين؟

أي يقول عندك أجلين؛ أجل تموت موتة طبيعية أو أنك تموت قبل أجلك أي أن أحدهم قتلك، لأن لديهم تصور بأن العبد هو الذي يخلق الأفعال، وليس الرب جل وعلا، قصة ليس لنا دخل بها.

الفلاسفة عندهم قصص منها قصة اسمها البداء وغيرها، ومبحث اسمه الموافاة عند الأشعار.

- الشاهد أن العقيدة أثرت في تفسير الآية فبدأ يُحوّل الآية على عقيدته، لذلك من الكتب الجميلة كتاب اسمه العقائدية وتفسير النص القرآني للكاتب ياسر بن ماطر المطرفي، كيف جعل عقيدته هي التي تفسر النص القرآني وليس النص الذي يبني له عقيدته؛ لذلك سماه العقائدية وليس العقيدة، إذ كيف لشخص عنده عقيدة معينة أن يُصر على أن يلوي النص القرآني لتوافق ما يعتقده؟

الخلاصة:

ماذا يفعل المفسر عندما يقابل شيئا كهذا؟

الترجيح: فإما أن ينظر إلى آثار السلف أو أن ينظر إلى السياق.

مَنْ نظر إلى آثار السلف، وجد اختيارات كثيرة متفاوتة فاختار من آثار السلف ما وافق السياق، وهذا ما فعله الطبري.

نكرر: عندما يقابلنا آية فيها إشكال كهذه ماذا نفعل؟

عندك الترجيح بطرق كثيرة منها: السياق، واللغة، وآثار السلف.

وجد الإمام الطبري آثارًا متنوعة؛ فاختار منها قول الحسن ومجاهد وهو متناسب مع السياق، عندما ننظر للسياق، سنرى أنه سيعطينا أحد المعنَيَيْن؛ إما نزول العذاب أو تغيير الآية، وماذا عن الآثار؟

عندما تنظر في الآثار، من الممكن أن تنظر أولًا عن ابن عباس لماذا؟

لماذا نقدم ابن عباس عندما ننظر في تفسير القرآن؟

لدعاء النبي –صلى الله عليه وسلم– له: (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)[٨] لذا يقدمون تفسير ابن عباس.

ولابن عباس تلامذة كثر، نقلوا عنه؛ فنجد ثلاثة من تلامذته: عكرمة، وسعيد بن جبير، وعلى بن أبي طلحة –وهو ليس تلميذًا مباشر وإنما روى بواسطة سواء مجاهد أو عكرمة، لكنه يُحسَّن– وجدنا أن هؤلاء الثلاث، كل واحد منهم بقول:

_قول: معناه ينسخ ما يشاء من القرآن ويُبقي ما يشاء.

_وقول: معناه أنه في كل الأشياء ما عدا أمورا معينة.

_وقول: عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما –وهو الذي اخترته في النهاية– وهو أن هناك كتابين يحدث فيهما المحو والإثبات، وكتاب لا يحدث فيه المحو والإثبات وهو اللوح المحفوظ.

---

[٨] [عن عبدالله بن عباس:] كُنْتُ في بيتِ ميمونةَ بنتِ الحارثِ فوضَعْتُ لِرسولِ اللهِ ﷺ طَهورًا فقال: (مَن وضَع هذا)؟ قالت ميمونةُ: عبدُ اللهِ فقال ﷺ: (اللَّهمَّ فقِّهْهُ في الدِّينِ وعلِّمْه التَّأويلَ)

ابن حبان (ت ٣٥٤)، صحيح ابن حبان ٧٠٥٥ • أخرجه في صحيحه

هنا ابن عباس عنده أقوال.. فلننظر لبقية السلف؛ ننظر لابن مسعود: يرى أن كل شيء قابل لأن الله يفعل ما يشاء؛ لذلك يروى آثارٌ عن ابن مسعود وسيدنا عمر بن الخطاب -بعضهم ضعفها وبعضهم حسّنها- أنه كان يطوف ويقول: "اللهم إن كنت كتبتني عندك شقيًا، فامحني واكتبني سعيدًا" أي أن يكون من السعداء الذين يدخلون الجنة هذا الدعاء معناه: أنه من الممكن أن يُمحى ذلك.

فحينما نظرنا في الآثار وجدنا:

كلام تلامذة ابن عباس قالوا أقوالًا مختلفة، وابن مسعود له قول، والحسن له قول، اختاره الطبري.

يقول أحدهم ما الذي استفدته من تلك الآثار؟

قاعدة مهمة في تفسير القرآن:

كان السلف يفسرون الآية بالمثال، وهذا أحد أسباب الاختلاف عن ابن عباس، فإما أن تُراجع السند، فترى من روى عن سعيد بن جبير؟

ننظر في بقية السند من الذي روى عن عكرمة؟

تدرس السند أو ترى من هو أقرب تلميذ له، أو من هو أقرب أو أقدم تلميذ فقد يكون غير الرأي أو أن يقوم المفسر -وهذا ما حصل هنا- بترجيح بعض العلماء، أن يقوم المفسر يضرب مثال؛ فمرةً ضرب مثالًا بالنسخ: {يَمحُو اللهُ مَا يشَاءُ وَيُثْبِتُ}(الرعد: ٣٩) ومرة ضرب مثالًا بالأجل، ومرةً ضرب مثالًا بكذا؛ فيكون المفسر من السلف لا يقصد هذا المعنى فقط؛ بل يكون يفسر بالمثال، وهذا أحد أسباب اختلاف المفسرين التي تقابلك عن السلف، وأنت تقرأ تفسير ابن كثير مثلًا، وهذا من عطاءات القرآن المتنوعة.

ملخص كل ما قلته:

أني أنظر في آية: {يَمحُو اللهُ مَا يشَاءُ وَيثبتُ}(الرعد: ٣٩) على السياق، أرى أن ترجيح الطبري والقاسمي أقرب للسياق حقيقةً، لكن هل هذا يَمنع من الاستفادة من معنى الآية في العموم؟

لا، بالعكس فهو يزيد من عطاء النص القرآني، أن الآية في السياق لها معنى، وأن الآية بمفردها كقاعدة عامة لها معنى آخر طالما أن السلف أقروا ذلك -أعتذر عن الإطالة-، لكني أحببتُ أن أختم السورة

ببعض القواعد التي تفيد من يريد أن يرتقي في القراءة، ولا سيما في التفاسير التي تذكر أقوالًا مختلفة؛ كابن كثير والطبري وغيره، ويعرف أن المفسر لم يكن يلهو!

دوري أغلبه هو جامعٌ لما قيل أما المفسرين فأتْعَبوا أنفسهم، وأذهانهم لإخراج هذه المعلومات الموجودة في التفاسير، مَنَّ الله -عز وجل- علينا أن قَيضَ لهذه الأمة هؤلاء الرجال، الذين بذلوا أعمارهم لكتابة تفسير كتاب الله -سبحانه وتعالى-.

أسأل الله -سبحانه وتعالى- أن يُعلمنا وأن يفقهّنا في الدين وأن يجعلنا وإياكم من أهل القرآن.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد ألا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وجزاكم الله خيرًا.